أناتول فرانس

بعد عشرة أعوام من وفاته

لعلي كامل

مقدمة

بلغ اناتول فرانس في حياته اسمى ما يمكن ان يبلغهُ كاتب عبقري . فوصل اسمه الى اقصى البلاد . وترجمت مؤلفاته الى معظم اللغات الحية وغير الحية . وطبعت كتبه مئات الطبعات . ونال من الجوائز والمراتب ارفعها شأناً واعلاها ذكراً مما تتقطع دونها أعناق أعاظم الكتّاب . فمنذ خط طريقه الى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور في ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٤ وفي عام ١٨٩٦ انتخب عضواً في الاكاديمي فرانسيز . وفي عام ١٩٢٠ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على ما يقرب من خمسة عشر الفاً من الجنيهات تبرع بها كلها لأهل روصيا ايام المجاعة !

على ان اناتول فرانس لم يكد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقاد يحاسبونه حساباً عسيراً . ينهشون اعماله ويحللون ويناقشون افكاره فانتهى الكثير منهم الى ان اناتول فرانس قد نال في حياته من المجد اكثر مما يستحق بكثير ! واتهموه بأنهُ كان على نقيض ما اراد ان ينشره حول اسمه ونجح فيه بفضل « ادعائه ودجله » ! فقد اراد ان يظهر بمظهر الرجل الذي جاء الى هذا العالم ليغرس الرحمة في قلوب البشر المتحجرة . ولكنهُ كان في نظرهم ابعد الناس عن الرحمة والرثاء للضعفاء والمساكين . قالوا : كيف يمكن ان يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً وهو الرجل الذي سخر حياته للسخرية من سرعي الحياة . رجل جاء الى هذا العالم ليستمتع بأكبر لذة مستطاعة وليسخر من اكبر عدد ممكن من الناس . نعم كيف يفهم آلام الغير ويحس بلوعاج المتألمين انسان لم يشعر بالألم الحقيقي مرة واحدة في حياته الطويلة لانه كان يكره الألم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فراراً الى متاع اللذات ومتع الحياة !

ولقد كان اناتول فرانس في كتاباته واقواله ديموقراطيًّا بل شيوعيًّا ثائراً . ولكم سخر منهُ في ذلك ايضاً فريق ناقديه . ألم يهزأ بالثورات ورجالها في قصته (الآلهة ظمآى) ؟ ! ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الانساني والثقافة العليا ؟ !

ولقد اضاف النقاد الى ما سبق فاعتبروا اناتول فرانس (لصًّا بارعاً) سرق كل ما جاء بهِ من الافكار من آداب وفلسفة الرومان والاغريق على الخصوص . ولقد خرج الناقد اندريه لي Lalli من

ذلك الى اعتبار اناتول فرانس (مفكراً من الدرجة الثانية)[1] اما الكاتب العظيم اندريه جيد Gide فقد قال عنهُ (كان يمكن ان يفيض حبي لاناتول فرانس اكثر مما هو الآن لولا ان عدداً من قليلي التبصر والدراية ارادوا ان يجعلوا منهُ كاتباً ممتازاً . . . . . ان قيمة الكاتب كما يقول ستندهال هي في قدرته على هزّ قارئهِ وانا حين اقرأ أناتول فرانس لا اشعر مطلقاً بأقل اهتزاز)[2]

ولسنا نريد ان نذكر شيئاً من التحقير والتشهير الذي وجههُ جماعة الـ Surréalistes الى أدب اناتول فرانس لانهُ يتعدى حد النقد المعتدل البريء

على ان اناتول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجه الى (الاستاذ الاعظم) — كما كان يسميه الفرنسيون — حتى اعتبره ميشيل كورداي في كتابه عنهُ (نصف إلّه)

يا له من تناقض عجيب ! ان الانسان ليشعر بالعجز المذل حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتضاربة . على اننا سنحاول ان نتجرد من التأثر برأي كل من الفريقين . ولننظر الى اناتول فرانس كما كان هو ينظر الى الناس . لننظر اليه متعالين متكبرين . لان التعالي والكبرياء ينفعاننا في الحكم عليهِ دون التأثر بتحزب عدو او الخضوع لمحاباة صديق . لنحكم عليه من خلال اعماله المجردة ولنستعين الى جانب ذلك بخلاصة صرخات النقاد طوال هذه السنوات العشر التي انقضت على وفاته ، من اصدقاء واعداء على السواء

﴿ حياته واعماله ﴾ ولد اناتول فرانس في باريس في اليوم السادس عشر من ابريل عام ١٨٤٤ وكان والده — ويدعى فرانسوى نوبل تيبو — بائع كتب . فنشأ اناتول بين تلال المؤلفات العديدة المتنوعة يتقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شيء دون ان يدري كنهها وقيمتها . فلما شبّ قليلاً وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وتراث العقول بجشع غريب وابتدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدها من ثنايا الاسفار

على ان احوال حياته العائلية قد أمانته أيضاً اكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة فلقد عرفنا الآن ان أناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعياً ان يقضي الصبي اناتول معظم يومه في الشوارع والطرقات بين أمثاله من الصغار . فتلك كانت طفولته أقرب الى التشرد والاضطراب منها الى الهدوء والاستقرار الذي تخلقه الحياة المنزلية الوادعة . ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول Crainquebille وقد ظهر كل ذلك واضحاً في قصته . وعند ما شبّ اناتول فرانس اشتغل مساعداً لأبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه ما يحبها وما يكرهها . فعرف من ألوان الحياة كثيراً مما لا يعرفه الكثيرون

(1) André Lilly : La litterature française contemporaine p. 152
(2) André Gide : Morceaux choisis. 20eme édition p. 137.

وكان أناتول فرانس يعتز الى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر انهُ كان يعلّق بها شأناً خاصًّا في توجيه تفكيره وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذي كان يمتاز به. وهذا ضرمادة لا نريقول في (كتاب صديقي Le livre de mon ami) هذه العبارة القصيرة التي تضم روح الاعتزاز والفرور (إني باريسي بكل نفسي وبكل جسمي) اذاً لكي ندرس أناتول فرانس وتفكيره وروحه يجب ان نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث

باريسي صميم — ابن بائع كتب — طفولة منشردة

***

لم يكن اناتول فرانس طالباً مجدًّا. وكان اهتمامه بقراءة الادب وبناء آمال ادبية اكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية . بل انهُ كان يعتبر ان حياة المدرسة ودروسها كانت حائلاً بينه وبين العلم الحقيقي اذ يقول (انني لم ابتدىء في التعلم الاّ عند ما انقطعت عن الدراسة المدرسية)

وكان اناتول طول حياته المدرسية فتيً مشاغباً دائم السخرية من أساتذته. ومجموعة ذكريات حياته التي كتبها فيما بعد حافلة بالشخصيات التي تمثل أساتذته أيام الدراسة مصورة بروح ساخرة ملجئة !

وكانت والدة أناتول فرانس — كسائر الامهات — تؤمن ايماناً صادقاً بأن ولدها سوف يصادف النجاح في جميع مراحل حياته . أما والده فكان على العكس شديد الخوف على مصير ولده وانك لتشعر بما كان يساوره من خطاب كتبهُ عام ١٨٦٨ وكان أناتول فرانس في الرابعة والعشرين . قال فيه

(ان ولدي لا يتبع نصائحي فهو لا يزال دون عمل . انه يكتب . بل يجب ان اقول انهُ يكتب بأسلوبه الرديء يشوه بهِ الصفحات ! [1] ان ما كنت اخشاه منذ صغره قد شاه القدر ان يتحقق الآن . لقد عيل صبري في مقاومته . فهل سيكون من الغطنة والذكاء بحيث يستطيع ان يعول نفسه . وا أسفاه ! وا أسفاه !)

أجل لم يقبل أناتول فرانس ان ينتظم في عمل من الاعمال يحقق بها رجاء والديه . بل ظل يقاوم مشيئتهما بعناد مثابراً على اعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغهُ بعد جهد جهيد

نعم بعد جهد جهيد . فقد كان الدور التحضيري لمجده الادبي طويلاً مملاً ، اذ قضى سنين طويلة يعمل في مكتبة ابيه . وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرهما بعد ان يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة . وكان يشتغل في ذلك الوقت ايضاً بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية كانت اولاها رسالة عن الفريد دوفيني (١٨٦٨) ثم ابتدأ يخوض غمار الشعر فنظم عدداً من المقطوعات جمعت في مجموعتين الأولى بعنوان Les Poèmes dorés (١٨٧٣) والثانية بعنوان Noces Corinthiennes (١٨٧٦) وكانت جميع هذه الاعمال — بأجماع النقاد — خالية من التفكير

(١) سيرى القارىء فيما بعد ان النقاد يجمعون على ان اناتول فرانس خير من كتب الفرنسية من الثورة الفرنسية الى الآن !

النيّر والذهن الصافي فلم ترفع ذكر مؤلفها . وفي عام ١٨٧٩ نشر اناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته في التأليف القصصي وهما Jocaste et le chat maigre فلم تسترعيا اليهما الانظار

وفي عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستر بونار) Le Crime de Sylvestre Bönnard فخرج اسمه بهذه القصة مرة واحدة من الظلمة الى النور . وتوالت بعد هذه القصة اعماله الادبية فكتب قصة (آمال جان سرفيان) Les Désirs de Jean Servien و (كتاب صديقي) Livre de mon ami (١٨٨٥) وهو الكتاب الاول من كتبه الاربعة التي ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب Balthazar و (تايس) Thaïs (١٨٩٠) و L'Emi de nacre و (آراء جيروم كوانيار) Opinions de Gérôme Coignard و La Rôtisserie de la reine Pédauque [1] و Lys Rouge و Jardin d'Epicure و Puits de Sainte Claire (١٨٩٥)

ومن عام ١٨٨٨ الى عام ١٨٩٢ كان اناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الادبي بجريدة الطان بعنوان الحياة الادبية Vie littéraire

الى ذلك الوقت كان اناتول فرانس مخلصاً لفنه واقفاً حياته عليه حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة فجذبته الى غمار السياسة ووقف معارضاً لدوداً لتلميذه شارل موراس . وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الاربعة في (التاريخ المعاصر) Histoire contemporaine وهي Le Mannequin d'osier و L'orme du mail و L'Anneau d'Améthyste و M. Bergeret à Paris و Clio و Pierre Nozière وهو الكتاب الثاني من ذكرياته

ومضى اناتول فرانس يوالي انتاجه القصصي وهو يسعى جهده في ان يغير طابع اعماله الادبية من قصص تشرح افكاره الفلسفية ونظراته العلمية الى اخرى تطغى فيها روحه الساخرة ونفسه المرحاة فكتب في هذه الفترة من حياته من النوع الاول قصصه Sur la pierre blanche و L'Ile des pingouin و Vers les temps meilleurs ومن النوع الثاني Histoire comique و Les Contes de Jacques Tournebroche و Les Sept femmes de Barbe—bleue

وفي عام ١٩٠٨ نشر اناتول فرانس كتابه (حياة جان دارك) Vie de Jeanne d'Arc الذي حاول به ان يخرج عن طريقته في معالجة التاريخ كقياس الى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على ان اناتول فرانس قد اخفق في تحقيق ما تمنى

وفي عام ١٩١٢ نشر اناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) Les Dieux ont soif ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) La Revolte des Anges وبكتابيه Le petit Pierre و La vie en fleur أتم

(١) يكاد يجمع النقاد ان قصة La Rôtisserie de la Reine Pédauque هي خير قصص اناتول فرانس . على ان هذا الرأي لا يتفق ورأي اناتول فرانس نفسه . اذ هو يقول (اذا اعدت كتابة كل قصصي . فان القصة الوحيدة التي اعيدها كما هي . كلمة بكلمة . هي قصة : Histoire Comique) فهي في نظره خير قصصه

انا تول فرانس كتبه الاربعة عن ذكريات حياته . وقد ذكر في ختام كتابه الاخير La vie en fleur ان هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والاخلاق والعادات) وان التغيير الذي حدث ينحصر فقط في تغيير الاسماء واحوال معظم اشخاصها

﴿ كلاسيكية انا تول فرانس ﴾ تفتحت عينا انا تول فرانس منذ طفولته على مناظر السين ومياهه الجارية (كما تجري صور الحياة في هذا العالم كل منها يمر ولا يبقى شيء) كما شبهها انا تول فرانس . وكان غرامه الدائم بالكتب والدرس يجعله يهيم بأوصفة نهر السين (القديمة الحزينة — كما يقول — تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل . أجمل مكان في العالم . حيث تجتمع الاشجار والكتب . وتمر النساء أمام العيون) . وكانت نفسه الشاعرة الفنانة تدفعهُ الى طول التأمل في (اللوفر) وفي (كنيسة نوتردام) وغيرها من آثار قرون المجد السالفة . تلك الآثار التي لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهبا بعد بازدحام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة . فلم يكن غريباً اذن ان يطبع كل ذلك نفس انا تول فرانس بما عرفه عنه من حب الآثار والحنين الى الماضي السحيق فانكبَّ منذ صغره على دراسة آداب الاغريق وعلومهم ونقشت في ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل الجد مثل هوميروس وصفوقليس وثيوفريطس او أهل الهزل مثل ابيقوروس ولقد تأثر فرانس ايضاً بالآداب اللاتينية وان كان تأثره بمظاهر الحياة اكثر من تأثره بأفكار الكتاب . كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره . ولا يجب ان ننسى أيضاً ما كان بين أنا تول فرانس ومفكري القرن التاسع عشر مثل رينان وشوبنهور وداروين من التجاوب الروحي والفكري

من ذلك نرى ان انا تول فرانس قد جمع في عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعاً وظهر ذلك واضحاً في كتبه حتى انه يؤثر عنهُ قوله : — لست اعثر على شيء جديد الا في كتاب قديم

﴿ نفسيته ونظرته الى الحياة ﴾ ان فن انا تول فرانس ما هو الا صورة من نفسه فالشخصيات التي رسمها في كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها وعاشرها . كذلك الآراء التي سردها على لسان ابطاله هي فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل اليهِ فهمه للحياة والناس

كان انا تول فرانس سطحيَّ النظرة الى الحياة . ولعل هذا هو السبب في خلو افكاره من العمق الفلسفي . فهو لم يحاول أن يتغلغل الى اعماق عوالم يجهلها ليكشف عن اسرارها ثم يصبها في فنه وأدبه بل كان ينظر الى الحياة نظرة متفرج . كأنهُ قائد جلس على ربوة عالية يشرف من فوقها على معركة الحياة وهو قانع مستريح . ولقد شرح انا تول فرانس فلسفته في ذلك فقال (لقد كنت دائماً ميالاً في كل وقت الى النظر الى الحياة كما ينظر الانسان الى منظر من المناظر الطبيعية . فلم اكن يوماً من الايام ملاحظاً مدققاً لأن الملاحظة لا بد لها من طريقة توجهها وانا ليس لي طريقة من الطرق . ان

الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجههما الوجهة التي يريدها . اما المتفرج فهو يستسلم لعينيه قانعاً بما تراه. لقد ولدت متفرجاً وسأحافظ طول حياتي — كما اعتقد — على السذاجة العظمى التي تميز اطفال باريس . تلك السذاجة التي تجعلهم يحبون كل شيء والتي يحافظون عليها مهما تقدمت بهم السنون)

والواقع الذي لا سبيل الى إنكاره ان اناتول فرانس قد جمع في نفسه سجايا المتكبر المغرور ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع وثقافته المتراصة المستمدة من الثقافة الاغريقية وهي ام الثقافات جميعاً. فاصبح ينظر الى الجيل الذي يعيش فيه كما ينظر اجدادنا وآباؤنا الينا . انهم ينظرون الينا بعيون ملؤها الاشفاق والرثاء كأننا منهما نلنا من سعادة مُتَصَوَّرة او علم نزهى به وهو في نظرهم قشور. لايمكن ان تبلغ ما بلغوا من سعادة ولايمكن ان تحوي عقولنا ما حوته عقولهم من علوم ومعارف ! تلك كانت نفسية اناتول فرانس وكأنهُ كان يقصد نفسه بقوله (متى توصل الانسان الى فهم كل شيء لم يرد شيئاً) لذا كان أناتول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفي عليه من الامور .كان كبرياؤه العجيب يدفعهُ الى الايمان بأن كل ما يجهله لا يستحق ان يعرف ! ولذا لم يكلف نفسهُ عبء التغلغل الى سبب الاشياء لكي يصل الى فهم الحياة والناس كما يجب . وكيف يكلف نفسه وهو الذي يقول (ان علم الحياة الحقيقي هو احتقارٌ كريم للناس اجمعين)

لقد فرض اناتول فرانس الشر في كل شيء وكان يجد العزاء الواسع في احضان الملذات ينتهبها انتهاباً. وكان ايمانه بمذهب ابيقوروس في التمتع في الحياة بأكبر لذة مستطاعة اقوى ما وصل اليه بعد تفكير هادىء رزين . ولقد بلغ به حبه للذة لمجرد اللذة ان أنكر الغيرة (التي لم اشعر بها قط طول حياتي) كما قال [1] كما انهُ انكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجل بالمرأة لا تخرج عن (مهمة جسدية)

﴿ تفكير أناتول فرانس ﴾ كان تفكير اناتول فرانس يدور حول أمرين

(١) الشك Scepticisme (٢) الاشتراكية

فالامر الاول يحدد نفسيته العامة ورأيهُ في الاديان ، والامر الثاني يبين فكرته السياسية والاجتماعية

﴿ شكه ﴾ ان شك اناتول فرانس ليس شك الرجل الذي يؤمن بعظم مسائل الكون وضآلة تفكيره حين يمعن في التعمق فيها بل شك العالم المستهتر الذي ركبه الغرور فصار يهزأ بكل رأي ويسخر من كل فكر فجميع الآراء والنظريات في نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبتدعوها وأي سخرية تلك التي دفعته لان يقول على لسان أحد أبطال قصة (آمال جان سرفيان) هذا القول (ان رأي العالم أجمع لا يستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) فأنت ترى ان أناتول فرانس كان ينظر الى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل ما يراه هازىء بكل من حوله حتى دفعه ذلك الى القول (كل قاعدة بحثت في اصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الأمر

(1) Michel Corday : Anatole France d'aprés ses confidences et ses souvenirs p. 220 et p.224

حتى علمت انها لم تكن قاعدة) ا وفي (حديقة ابيقور) يقول :

— كلما فكرت في الحياة الانسانية زاد اعتقادي في ان السخرية والشفقة هما الوسيلتان الوحيدتان للنظر اليها والحكم عليها . اذ ان السخرية والشفقة اصحاب رفيقان فالسخرية تحبب الينا الحياة . والشفقة تجعلها مقدسة لدينا . والسخرية التي أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة . انها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل ، انها السخرية الهادئة الكريمة . فالابتسامة الساخرة تمكن سورة الغضب وهي التي تعلمنا التهكم بالاشرار والحمقى وبدونها نضعف ويتسلط علينا الحقد والضغينة

ولقد اراد أناتول فرانس ان يرسم نفسه في كتابه (آراء جيروم كوانيار) في مقدمة الكتاب نراه يحلل شخصية (جيروم) فيصفه بأنهُ : (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما في نظر أناتول فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وجيروم هذا (فيلسوف ومسيحي) تأثر باثنين كان لهما الأثر الاكبر في تفكيره : الاول ابيقور Epicure الذي اكتسب منه انطلاق الرأي وحرية الفكر والثاني سان فرانسوي داسيز Saint François d'Assise الذي أخذ منهُ بساطة النفس والبعد عن التكلف المرذول . والقارىء لكتاب (آراء جيروم كوانيار) لا يلبث ان يحس بذلك الجرح الذي يغمر آراء جيروم وبتلك الروح الماجنة الساخرة التي تجعله يعصف بالدين والاخلاق والتشريع والفكر الانساني وكل ما اصطلح على تمجيده وتقديسه

فالهدم . الهدم . هو صفة أناتول فرانس العظمى . ان كلَّ صفحة يخطها هي احتقار لتقليد من التقاليد أو تسفيه لفكرة سائدة من الافكار . خذ المجتمع الانساني مثلاً . أنهُ حين يذكره نراه قد انقلبت شخصيته وتحول اشتهاره وعجزه الى قسوة لا رحمة فيها فينزل على المجتمع وعلى تقاليده واخلاق ابنائه بسياط من نار . حتى العقل الذي طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته اذ يقول في نهاية (آراء جيروم كوانيار) — اذا أردنا ان نخدم الناس فيجب ان ننبذ كل منطق وتفكير . ونلقي به كما نلقي بأثاث يضايقنا . يجب ان نطير على أجنحة العاطفة والحمية . أما التفكير والتمعن فلا . ان الانسان اذا فكر فانهُ لن يتقدم مطلقاً تقدماً محسوساً

﴿ اناتول فرانس والدين ﴾ كان طبيعيًّا ان يؤدي شك أناتول فرانس الى عدم الايمان بالله فقد كان ماديًّا عنيداً وكان احتقاره للكنيسة وسخريته من رجالها لا مثيل له . اذ كان يعتقد انها العدو اللدود لكل فكر حر ورأي مستنير

ان جميع كتب اناتول فرانس تجيش بألحاد راسخ . ولقد بقي حتى آخر لحظة من حياته محافظاً على إلحاده مخالفاً بذلك لكثير من المفكرين للملحدين الذين حين تتقدم بهم الشيخوخة و تخور قوة أعصابهم وينطفي جموح شبابهم يهرعون الى صفوف المؤمنين كأشد الناس ايماناً واعظمهم تديناً

ولقد لخص اناتول فرانس كل آرائه في الدين في كتابه (احاديث عن وجود الله) [1]

(١) راجع تفصيل هذه الآراء في كتاب مبتيل كورداي : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs. من ص ١٨٦ الى ص ١٩٧

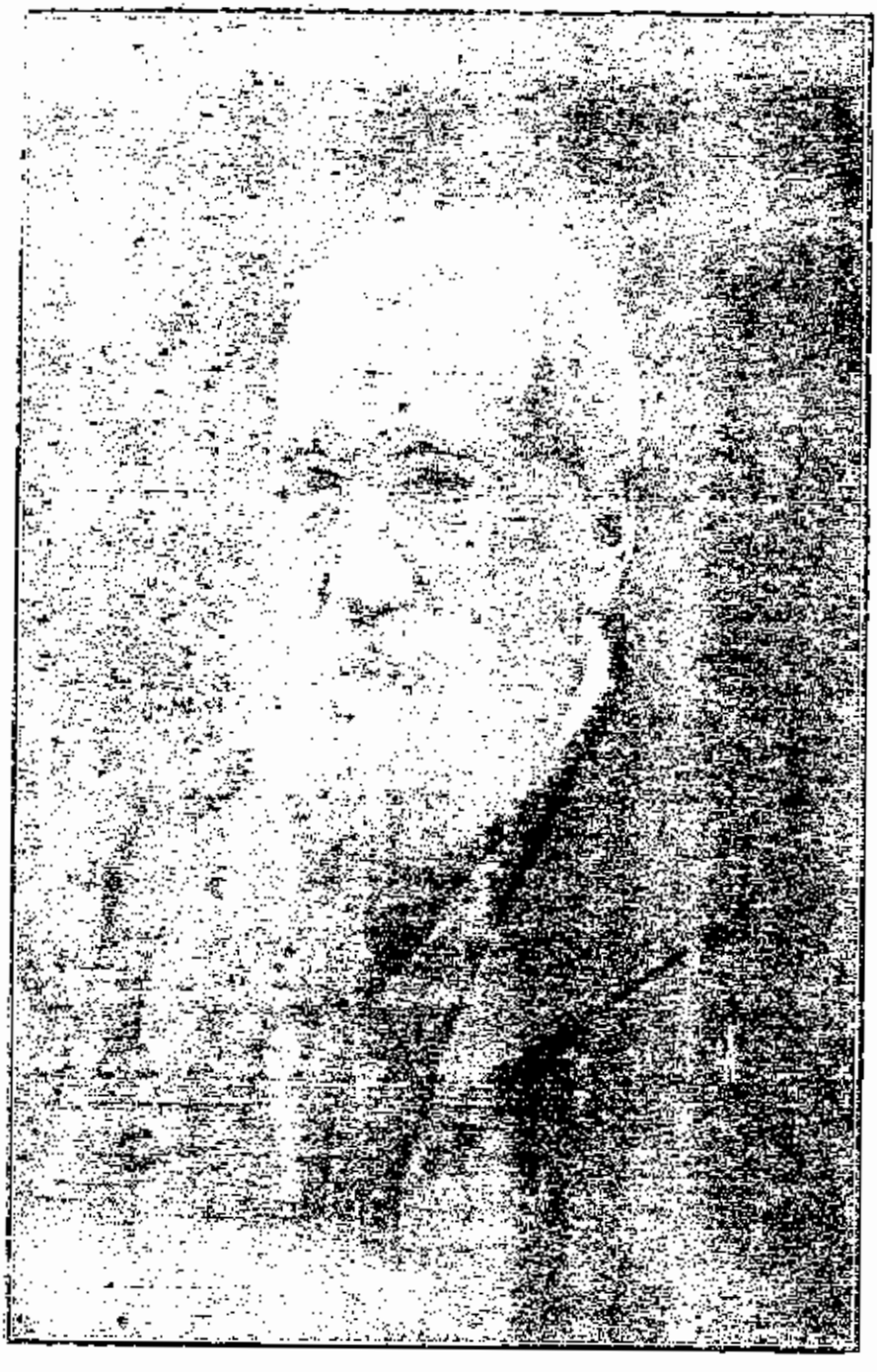

Entretiens sur l'existence de Dieu الذي كتبه في آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلمه الى صديقه الكاتب ميشيل كورداي وعهد اليه في نشره فظهر بعد موته بعام.

كان هذا الكتاب آخر ما خطته يدا أناتول فرانس في عالم التأليف وهذا وحده يكفي لان يبرهن لنا ان اناتول فرانس بقي ملحداً حتى آخر لحظة من حياته. اسمعه وهو يقول: —

— نعم انني بالتأكيد ملحد. لقد فكرت وكل من وصل الى قدر معين من الذكاء لا يستطيع ان يكون غير ذلك. انني لا أبغي شيئاً من وراء إعلان إلحادي. وكل ما اريد قوله هو أنه حتى في العهود التي كان الدين مسيطراً فيها على كل شيء كان هناك عدد من الكافرين اكثر من عددهم الآن. وكل ما هنالك انهم كانوا عاجزين عن اظهار ما يبطنون

وأناتول فرانس كغيره من الماديين يرى انه ليست هناك قوة خارجية تسيّر الكون. وان كل هذه القوانين الطبيعية التي تتحرك بمقتضاها الكواكب والرياح وغيرها هي قوانين تحدث من تلقاء نفسها ولا تتغير. فالكون في نظره هو مجموعة قوانين يتوقف كل قانون منها على الآخر ويؤثر فيه[1]

على ان اناتول فرانس يرى ان الدين كان حدثاً لا بدّ منه. ذلك ان الدين في نظره وليد العذاب والشقاء. وما دام العذاب والشقاء لا يفارقان هذا العالم. فانه كان لا بدّ من ظهور الاديان وسيادتها (فالمؤمن المتدين — في نظر اناتول فرانس — هو الشخص الغارق في الخطيئة الذي يأمل بتدينه الصفح والغفران او المعذب البائس الذي فاته نعيم الدنيا فالتمس العزاء بتصور نعيم الآخرة)[2]

وكثيراً ما نرى اناتول فرانس يمزج انكاره لوجود الخالق بنوع من السخرية الجريئة التي هي اول خصائص تفكيره كقوله (ان علينا من واجبات الحياة ما فيه الكفاية فلم نخلق في تصورنا واجبات نحو إله لا وجود له) وقوله لقد جعل الناس من الله شخصية مخيفة. فكيف يمكن لانسان ان يتوسل ويبتهل الى كائن ثقيل الظل — Les hommes ont fait de lui un personnage odieux. Comment peut-on prier un être aussi antipathique ? وقوله ايضاً (ان عجز الله لا حدّ له) L'impuissance de Dieu est infinie[3] ولنختم الكلام عن الحاد أناتول فرانس بهذه العبارة التي نرى كيف يجد في الإلحاد والكفر نعيماً نفسياً لا يقبل التناول عنه — ان الحزن الفلسفي قد فسر نفسه اكثر من مرة تفسيراً رائعاً مكتئباً. فكما ان المؤمنين الذين وصلوا الى أقصى حدّ من الجمال المعنوي يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع. كذلك العالم الذي اقتنع بأن كل ما يحيط بنا ما هو الا كذب وخداع تسكره تلك الخمرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادىء. ان الذين يتذوقون

---

(١) Emmanuel Chrysostome : Anatole France p. 40

(٢) راجع تلخيص الامير تكيب لرسالة كتاب بقولا سيجور Ségur المسمى Conversations avec Anatole France, ou, Inquiétudes de l'intelligence اللحق بكتاب (اناتول فرانس في منزله) تأليف بروسون وتعريب الامير تكيب (ص ٦٤ و٦٥)

(٣) Michel Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs p. 191 et 192

جال ذلك الهم الدفين لا يتسنون ان يستبدلوه بالمسرات الجامحة والاماني الوهمية التي تلازم رجل الشارع في اشتراكيته . وأينا ان الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس أجمعين هو الظاهرة الطاغية على فن اناتول فرانس . وانت اذا اردت ان تتلمس من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض والسخرية المريرة وجدتهما يرجعان الى خيبة امله في النفس الانسانية والفكر الانساني فنحن كما كنا منذ عشرات القرون لا نزال نتغمس جميعاً في حمأة الرذائل والنقائص الاخلاقية والفكرية فاذا اردت ان تعرف بعد ذلك السبب الذي اليه يرجع اناتول فرانس معظم جمّ الرذائل والنقائص وجدته يرجعها الى شيء واحد وذلك الشيء هو المال

فالمال . المال عند اناتول فرانس هو الاساس الذي قامت عليه دعامة معظم الرذائل الانسانية لذلك نرى ان اناتول فرانس رغم استهتاره بكل شيء ونظرته المتشائمة اليائسة كانت تمر على ثغره بين حين وحين بسمات مضيئة من الامل العريض في مستقبل الانسانية . فقد كان يعتقد ان شيئاً واحداً لو تحقق لأنارت العالم موجة من السعادة الخالدة والهناءة العميمة . ذلك الشيء هو تحطم سلطة المال وانهيار صرح النظام الاجتماعي الذي نعيش الآن في ذيله ليحل محله نظام اشتراكي ينشر العدالة الاقتصادية بين الناس ويمحو من الوجود ظلم الغني وعبودية الفقير ذلك ان (الأخاء بين الناس — كما يقول — هو النتيجة الحتمة للاشتراكية)وهو يقول ايضاً (ان السلام العالمي سوف يتحقق يوماً من الايام لا لأن الناس سوف يصبحون خيراً مما هم عليه الآن — فليس من السهل التعلق بهذا الامل — بل لان نظاماً جديداً للاشياء او علماً جديداً وضروريات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهم حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة في الماضي ان يعيشوا في حالة حرب دائمة)

وكان اناتول فرانس يرى رأي كارل ماركس في ان اتحاد العمال من الوسائل الاكيدة لحفظ السلام العالمي . وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحرب . وكثيراً ما كان يكرر هذه العبارة (يظن البعض ان المرء يموت في الحرب من اجل الوطن . كلا . انهُ يموت من اجل اصحاب المصانع)

على ان اناتول فرانس رغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة انسانية عظمى كان لا يؤمن بسيادة البراهين وبالتالي كان لا يؤمن بالديموقراطية . ولذا هاجمهُ النقاد واتهموه بالتذبذب والرياء والتجرد من اولى سمات الاديب العظيم وهي التعلق بمثال انساني أعلى . واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء واحتقاره للمال والاغنياء نوعاً من الدجل الفكري الذي اتخذه سلماً لبلوغ قمة المجد الادبي . على ان اناتول فرانس رغم عدم ايمانه بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهوري على غيره من نظم الحكم الراهنة (لانه اخف من غيره ايذاء واقل ضرراً . فهو ليس العدالة ولكنهُ اقرب الى الطبيعة والبساطة من غيره من النظم)

واناتول فرانس من هذه الناحية شديد التأثر بالفيلسوف ارنست رينان [1] فقد كان هذا شديد

(١) André Billy : La littérature française contemporaine p. 152.

الطعن في الديموقراطية متهماً اياها انها تتعارض والمدنية لانها تعوق التقدم الفكري . على ان رينان اعترف في النهاية بأن الديموقراطية لا تتعارض مطلقاً والمدنية بل هي من اكبر العوامل على دفعها الى الامام في سبيل السمو والكمال . ومثل رينان كان اناتول فرانس فقد كان هذا الاخير رجلاً ثوريًّا يتخذ الاشتراكية مثله الاجتماعي الاعلى . على انه كان يعتقد الى جانب ذلك ان الفكر لا ينهض الا في احضان الارستقراطية لذا كان يرى ان رسالته ككاتب واديب فنان تقضي عليه ان يوفق بين الثورة والثقافة فاذا كان يرى ان سيادة الشعب تسيء الى الفكر الانساني فهو لا يتردد في ان يظهر قلقهُ من سيادة الجماهير مبيناً عيوب النظام الديموقراطي وان كان هو نفسه يفضله على غيره من نظم الحكم لما فيه من الفضائل التي تفوق نسبيًّا فضائل النظم الاخرى

ويفسر أميل فاجيه[1] كره اناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم بأن اناتول فرانس كان كأستاذه فولتير شديد الكره للأديان وما يتخذ صورتها كالثورات العنيفة . ذلك ان الجماهير التي عض احشاءها الجوع ومزج كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين — هذه الجماهير حين تنفجر انقاضها المخنوقة في ثورة تأكل في طريقها الاخضر واليابس تراها تتخذ مثل الثورة الاعلى ديناً تعجله كبار الاديان فتنصب له وتركب في سبيله وبنفس الروح نفس الجرائم والآثام التي يرتكبها رجال الدين الغاشمون ضد الخارجين عليهم . وقد اظهر ذلك اناتول فرانس بطريقة بارعة في قصته (الآلهة ظمأى)

ان اناتول فرانس يمتاز بأنه لا يأخذ بفكرة من الافكار على ان في تحقيقها بلوغ الكمال المطلق . لذا تراه رغم ايمانه الصارخ بالاشتراكية كان لا يفتأ يوجه اليها نقداً لا يقل في مرارته عن النقد الذي يوجهه اليها اعداؤها الالداء . من ذلك قوله في حديث له مع جوريس رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي اغتيل عام ١٩١٤ — ان من البين ان محول الانواع الحية لا يطابق المساواة فنظرية داروين في الانتخاب التي هي مفتاح التاريخ الطبيعي او التاريخ بالاجمال كل اعتمادها على الفروق . والمخلوقات لا تترقى الا بالبعد عن المساواة . ان في تاريخ الهيئات الاجتماعية وتواريخ الفنون والآداب والاختراعات براهين على انه لا سبيل لوجود شيء الا بوجود المتفوقين والتفوق هو نقيض التساوي[2]

وليس هنا مجال القول ان الاشتراكية — كما اجابه جوريس — لا تساوي بين كفاءات الاشخاص بل تساوي بينهم في الحقوق ودرجات الرفاهية وتوزيع العدل . وانما الذي نريد بيانه ان اناتول فرانس كان لا يتردد في انتقاد الاشتراكية واظهار ما يراه فيها من عيوب . وان كان يرى انها المثل الاعلى لنظم الحكم جميعاً حيث يمكن تحقيق اكبر قسط ممكن من العدالة الانسانية ومحو اعظم قدر من الشقاء الانساني ان لم يكن كله

والواقع ان هذه الطريقة التي يفكر بها اناتول فرانس لا تعيبه ولا يجب ان تكون موضعاً

(١) Emile Faguet : Petite histoire de la littérature française p 306 et 307

(٢) راجع كتاب (اناتول فرانس في مباذله) ص ٧٢ و ٧٣

اليوم او تقدمت هي في نظرنا دليل سعة الفكر والعقل الراجح فقد تعوّدنا ان نرى الشخص الذي يؤمن بمبدأ من المبادىء السياسية او الاجتماعية يتعصب له تعصباً شديداً ويدافع عن مبدئه في الحق والباطل . ينسى رذائله ويتشبث بأتفه فضائله . اما اناتول فرانس فلم يكن كذلك وكان اعتزازه الذي لا حد له وفكره الواسع المتراحي يجعلانه لا يشعر بالنقص الذي يشعر به غيره من الناس حين يعترف بنواحي الضعف في الفكرة التي يؤمن بها . وكانت طبيعة الشك التي تسيطر عليه تساعده على استكشاف مواضع الخطأ قبل مواضع الصواب في كل شيء يراه او يفكر فيه

ان الذي لا ريب فيه ان اناتول فرانس كانت تجري في دمائه روح العدل والمساواة وكان قلبه الكبير يفيض بالرحمة ويترفع عن الصغائر . واذا كان همه طول حياته السخرية والتعالي فهي سخرية الأب الرحيم بتصرفات اطفاله الصغار الذين يحمل لهم في قلبه اعظم الحب واقدس الوفاء . ولقد بقي اناتول فرانس حتى آخر نسمة من حياته يردد هذا القول

— ان الاشتراكية هي ضمير العالم وان النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهي الا باختفاء هذه الطبقات

﴿ اسلوب اناتول فرانس ﴾ اذا كان النقاد قد اختلفوا في تقدير قيمة اعمال اناتول فرانس وتفكيره فان سوادهم متفق على انهُ خير من كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية الى الآن . بل ان الناقد اندريه بيّي يعتقد ان ما يمتاز بهِ اسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لا نظير له في الآداب الفرنسية جميعاً

لقد كان اناتول فرانس هو المنقذ الأكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور والانحطاط بعد الثورة الكبرى . ورغم انهُ كان في تفكيره ثائراً فنبذ الافكار جميعاً الا انهُ كان بالعكس من جهة اللغة محافظاً فأعاد لها مجدها القديم . مضيفاً الى ذلك عبقريته الخاصة في حسن الصياغة والدقة النادرة في الاحساس بجمال الالفاظ والتعابير

ولقد كانت سهولة اسلوبه وابتعاده عن التكلف هي ميزته الكبرى . وكان يفتخر قائلاً (ان كمية الفاظه اللغوية محدودة فقيرة) وكان ايمانه بوجوب السهولة المطلقة في الاساليب تدفعه للاعتقاد — بخلاف الكثيرين — ان الصحافة تساعد على تقدم اسلوب الكتابة لانها بفرضها الكاتب الصحفي على الاسراع في الكتابة تحول بينهُ وبين التكلف والافتعال فيخرج اسلوبه طبيعيًّا مستقيماً سلساً»

لقد كان اسلوب اناتول فرانس — كما يقول الناقد بول سوداي — فريداً لا يمكن تقليده ولقد صدق جول لومتر في قوله : (لقد كان اسلوب اناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه ترى آثار اساليب راسين وفولتير وفلوبير وريتان . . . . . واسلوب اناتول فرانس دائماً)

---

(١) Michle Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs

(٢) Emmanuel Chrysostome : Anatole France

(٣) اناتول فرانس في حياته) تأليف بروسون وتعريب الاميركتب ارسلان . وله ايضاً تلخيص كتاب نيقولا سيجور

(٤) René Lalou : Histoire de la littérature française contemporain

(٥) André Billy : La littérature française contemporaine

(٦) Emile Faguet : Histoire de lalittérature française